

ثانياً : مكانة الكتابة والكاتب (الخطاب)

في مصر القديمة

إذا كنا قد أوضحنا في الفقرات السابقة صورة النظام السياسى فى مصر القديمة وعرفنا إلى أى حد كان وعى الإنسان المصرى قد بلغ حداً بعيداً من الكمال فى إدراك معنى الدولة والنظم السياسية والسلطات السياسية المختلفة ، فإنه من الضرورى بالنسبة لموضوعنا أن نعرف إلى أى حد كان هذا الإنسان المصرى القديم مدركاً لأهمية الكتابة والدور الخطير الذى يلعبه الكاتب فى بلورة الأفكار وصنع الحكمة الخالدة التى تتفع الناس .

لقد كشفت العديد من البرديات القديمة عن المكانة الكبيرة التى كان يتمتع بها الكاتب فى مصر ، ومن هذه البرديات بردية الحكيم "سنب حتب" الذى أوصى ابنه قائلاً : " أعد نفسك لتكون كاتباً وحاملاً قلم المعرفة . . . إنها أشرف مهنة وأجدر وظيفة تليق بك وترفع شأنك وتقربك من الآلهة . . إن ما يخطه قلمك سيعيش أبد الدهر ويكون أكثر خلوداً مما ينقشه الآخرون على

الحجر الصلب لأنه سيعيش فى قلوب الناس ورؤوسهم فلا تمتد إليه يد العبث أو التخريب . . تعلم كيف تحرك أصابعك القلم وكيف يحرك عقلك أصابعك فلا يخط قلمك إلا الحكمة والمعرفة وما ينفع الناس . . . اجعل ملف البردى وأدوات الكتابة أصدقاءك ستجد أنهم أوفى الأصدقاء وأخلص الندماء . . . ستزيدك الكتابة بما هو أجمل من ملابس الكتان و عطور اللوتس . إن ما يخطه قلمك هو أعظم ميراث لا تعبت به يد الطامعين وأثن من إرث أرض فى ناحية الشرق أو مقبرة ناحية الغرب . إن الكتابة مهنة مقدسة تقربك إلى الإله الذى منحك العقل والقلم وتقربك من فرعون والناس وتجعلك حبيباً للجميع . . . (١٢) .

وليس أبلغ من تلك الكلمات السابقة فى تقدير قيمة الكتابة وأغراضها النبيلة فهى وعاء الحكمة وميراث الحكماء والمهنة المقدسة التى تقرب الإنسان من الإله وتجعله محبوباً بين الناس . ولعلنا نتذكر هنا ما قاله أرسطو بعد ذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد فى تقدير فضيلة التأمل والحكمة فى الكتاب العاشر من " الأخلاق إلى نيقوماخوس " ، وفى ختام كتاب " النفس " ، إذ لا شك أن ما قاله

أرسطو فى تقدير الحكمة والحكيم وفى قربه من الإله والفعل الإلهى كان صدى من أصداء هذه الكلمات المصرية القديمة .

وإذا كان ذلك يعد وصفاً للسعادة والشرف التى يجنيها الكاتب من مهنة الكتابة فى نظر الناس والإله والمالك ، فإن ما تخلفه الكتابة فى نفس الكاتب من سعادة ذاتية لا يقل عن ذلك ؛ ولقد قال " رع حتب " واصفاً لذة الكتابة : " الكتابة تجعل الكاتب أسعد من امرأة وضعت طفلاً فالكتابة كميلاد الطفل الذى يعوض الأم ما تحملته من آلام فى حملة وولادته ، فلا تشعر بأى تعب وهى تقوم وترضعه وتعطى ثديها لقمه كل يوم . . فرح هو قلب الكاتب الذى يزداد شباباً كل يوم . . فرح وهو يسترد أضعاف ما أعطى . . من حبهم وتعظيمهم له وتقديسهم لأعماله " (١٣) .

ولقد أدرك المفكر المصرى القديم كما أدرك أرسطو بعد ذلك بعدة قرون مدى ما تحققه الكتابة من استقلال وحرية ذاتية للكاتب حينما يشعر براحة العقل والسيادة على النفس وعدم الحاجة إلى الآخرين . إن هذا كله عبرت عنه فى الفكر المصرى القديم برؤية الكاتب " آمون من " حينما قال : " كن كاتباً حتى يريح عقلك إجهاد

جسمك . . كن كاتباً لتصبح سيد نفسك ولا تكن تحت إمرة أسياد
كثيرين . . كن كاتباً فتتعلم عليك الآلهة بحاسة جديدة مقدسة تضاف
إلى نصف حواسك الخمس، حاسة تميزك عن الآخرين فتري ما لا
يراه الآخرون وتسمع ما لا يسمعه الآخرون . . ستري وتسمع بعقلك
وقلبك عالم ما وراء الطبيعة ، ستتمتع بشهوات عقلك فتسعد قلبك
ومن كان قلبه سعيداً أسعد الآخرين (١٤) .

إن هذه البردية كشفت عن مدى السمو الذي تحفقه الحكمة
للحكيم الكاتب ، فهو الذي يستطيع وحده إدراك ما لا يستطيع
الآخرون إدراكه ، وهو الذي يصل إلى سعادة العقل والقلب معاً .
وإذا كان ذلك هو ما يشترك فيه أرسطو مع المفكر المصرى القديم ،
فإن تميز المفكر المصرى يبدو في إدراكه أن السعادة الذاتية التى
يشعر بها الكاتب إنما تمتد ليشعر بها الآخرون معه ، فالكتابة تواصل
والخطاب أداة للنفع المتبادل سواء كان مكتوباً أو شفوياً . إنها وعاء
الحكمة الذى تتناقله الأجيال ويتوارثه الأبناء عن الآباء .

والطريف أن كل ما اكتشف من إرث الحكماء المصريين
للقدامى يتفق فى مضمونه حول هذا الإدراك العميق لمواطن الجمال

والفضيلة فى التخصص فى التأمل والكتابة ؛ فسبك حطب يقول لمن
يخاطبه " ليتنى أستطيع أن أجعلك تحب الكتابة أكثر من أمك ، ليتنى
أستطيع أن أريك جمالها " (١٥) .

وها هو الحكيم أنى يخاطب ابنه قائلاً " فاتكن أمنيتك أن
تصبح كاتباً ، فالكتاب أعطى رزق تسعى إليه . . وأعظم هبة يهبها
الإله لمن يسعى إليه . الكتاب أعظم قيمة من مسكن للحياة حيث
تشرق الشمس وأبقى خلوداً من مقبرة حيث تغرب الشمس . إنه أجمل
وأمتع من قصر فى البستان أو لوحة دعاء فى هيكل معبد الآلهة " (١٦) .

إن حياة الكاتب ومهنة الكتابة كانتا تمثلان أملاً وقوة ينبغى
أن تحتذى . وقد حاول كتاب مصر وحكامها إقناع ذويهم بذلك قدر
الطاقة وبمقدار ما استطاعوا من بلاغة فى الخطاب . ولا شك أن
المصريين قد تقاعلوا مع هذه الآراء التى أطلقها الحكماء والكتاب .
وقد دلنا على ذلك مدى الاحترام والتقدير الذى ملأ نفوس المصريين
سواء كانوا من العامة أو من الخاصة ، سواء كانوا حكاماً أو
محكومين تجاه الحكماء وما خلفوه من آثار حكمتهم للخالدة . وها هو
الملك الأهناسى الممن يأمر ابنه بفتح ملف البرديات الذى يحتوى

على نصائح الوزير والمفكر المصرى العظيم بتاح حوتب وقد مر عليها آنذ حوالى أربعمائة سنة قائلاً له : " كن ممن يحسنون صناعة الكلام لتكون فوى البأس لأن قوة الإنسان هى اللسان ، والكلام أعظم بأساً من كل حرب " (١٧) .

ولا شك أن ذلك الملك المسن كان ممن يؤمنون بأراء بتاح حوتب الأخلاقية والسياسية ، وخاصة بقوة منطقته فى التبادل على أهمية الخطابة والقدرة على الإقناع فى العمل السياسى ، تلك القدرة التى قد تتفوق فى تأثيرها على قوة السلاح (١٨) .

إن إدراك قيمة الكتابة وخطاب الحكمة قد انفصل إذن من مستوى النظر إليها كمهنة شريفة تجلب السعادة لصاحبها وللآخرين ، إلى مستوى النفع السياسى . ويرجع الفضل فى ذلك إلى ما كتبه بتاح حوتب فى حوالى ٢٧٠٠ ق.م ، حبت كان هو أول من أدرك ذلك الربط بين الخطاب المكتوب أو المسموع وبين المهارة السياسية " إذ إن ثروة المرء العظيمة هى عقله " . وإذا كان العقل قد صقل بالعلم والمعرفة فلا ينبغى للإنسان أن يتكبر على الآخرين بما يعرف أو يعلم، بل عليه أن " يشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن

الوصول إليها ، وليس هناك عالم بلغ فى فنه حد الكمال " ، ولذلك فهو يطالب العالم - الحكيم بأن يحسن الاستماع كما يحسن الكلام ؛ " فالمستمع هو الذى يحبه الإله ، أما الذى لا يستمع فإنه هو الذى يبغضه الإله " (١٩) .

لقد كان بتاح حوتب أول من أدرك أهمية الخطاب بالنسبة للسياسى ؛ فقدره السياسى المحنك على الخطابة والإقناع ضرورية لينال الحظوة عند الملك ، وليكون قادراً على حل مشاكل الناس وينال الشهرة والسمعة الطيبة بينهم . ولذلك فقد لقن بتاح لابنه قواعد عديدة للخطابة والجدل وعلمه آداب التنافس بين الخطباء (٢٠) .

ومن جانب آخر فقد علمه أن السياسى الناجح إذا ما أراد أن يحقق العدالة على خير وجه فعليه أن يحسن الاستماع إلى خطاب المظلوم حتى يفرغ من شكواه تماماً ففى هذا كمال الفضيلة السياسية فى نظر بتاح حوتب الذى أكد لابنه فى نصائحه إليه : " إذا كنت حاكماً فكن شقيقاً حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسئ إليه قبل أن يغسل بطنه ويفرغ من قول ما قد جاء من أجله . . وأنها لفضيلة يزدان بها القلب أن يستمع مشفقاً " (٢١) .

لقد أدرك المصريون القدامى إن أهمية الكتاب والخطاب
والفضائل المرتبطة بهما . كما أدركوا الأهمية الشديدة لهما في عالم
السياسة وذلك فقد بدأ فكرهم السياسى كله من خلال الخطاب بمستوياته
المتعددة ، سواء كان خطاباً صدر من السلطة الملكية أو صدر من
الشعب حاملاً الشكوى والنبوءة ، وهذا ما سنعرض له فيما يلى .